

اجتهادات العقل .. والوجدان

إذا اعترفنا بأننا نتأثر أحياناً بوجداننا أكثر من عقولنا، ولم ننكر ذلك خشية اتهام باللاعقلانية، ستزداد معرفتنا بأنفسنا، وقد نُصبح أقل حيرة وأكثر اطمئناناً. وتكمن أهمية الاعتراف بقوة أثر الوجدان، حسب هذا التصور، في الوصول إلى حالة السكينة الداخلية والسلام النفسى. فهذه الحالة تعتمد على الإحساس فى المقام الأول، ثم على العقل. وحسب هذا التصور، فالإحساس هو الذى يحفز ويحرك ثم يأتى دور العقل والمعرفة والفهم والتحليل والتصرف. ودور العقل فى معظم خياراتنا هو فحص ما اختارته عواطفنا وأحاسيسنا، لتعزيزه أو نقضه. فعندما تُعجبنا فكرة أو كلمة أو موقف يصدر الإعجاب عن إحساس كل منا، فيشعر بأنه صحيح أو جميل أو خير، قبل أن يفعل العقل فعله. وعندما نتأمل هذا التصور الفلسفى، ربما نجد أنه كان وراء تعظيم بعض القيم المستحسنة مثل التعاطف مع من يعانون آلاماً أياً يكن نوعها، والإحسان بما نقدر عليه بدون اختبار جدارة من نُحسن إليه أو إليهم. فالوجدان إذن يسبق العقل وليس هذا كلام شعراء عن الحب والعشق وسهر الليالى فى ضوء القمر الذى يُغطيه طيف

المحبوبة أو المحبوب. ليس الشاعر الجميل الراحل إبراهيم ناجي مثلاً هو صاحب هذا التصور الذى يُقدم الوجدان على العقل، بل المفكر التنويرى المعروف للمهتمين بتاريخ الأفكار دافيد هيوم. فهذا تصورٌ عقلى بامتياز، وإن أفاد أن العقل يأتى بعد الوجدان أو يصحبه. وهو لم يقصد تقليل دور العقل بأى حال، بل توضيح ما غاب عن بعض معاصريه التنويريين، بدون تعميم مُخل، لأن الأمر يرتبط فى كثير من الأحيان بتكوين الأشخاص وطبيعة عملهم. ولنقارن مثلاً بين من يعملون بالطب والقانون. الطب الحديث، بخلاف التقليدى، لا يعتمدُ فيه الطبيبُ على ما يشعرُ به، بل على الفحوص والتحليل. عملُ المحامى يختلف. أكثرُ المحامين مهارةً هم يسировون أولاً وراء أحاسيسهم، ثم يبحثون عما يؤيدها أو ينقضها. والقاضى أيضاً يتأثرُ بما يشعرُ به خلال سماعه الادعاء والدفاع والشهود، وليس بأوراق الدعوى فقط. ولا بد أن يطمئن وجدانه إلى الحكم الذى يُصدره.